١٤ / ٤ / ب / ١٦

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الاشرف

الثقافة العالمية

مجلة تترجم الجديد في الثقافة والعلوم المعاصرة

العدد ١٣ السنة الثالثة / المجلد الثالث ـ محرم ١٤٠٤ هـ ـ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣م .

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٢٥٨١
التاريخ ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٨

في هذا العدد

● المستشرقون والاستشراق
في كتابات محمد كرد علي ٧
● دور مفتي القدس في الصراع السياسي على الحائط العربي ٢٠
● سلالة الجمل واستئناسه في مصر والصحراء ٣٤
● تعلم اللغات بمساعدة الكمبيوتر ٦٦
● ليست الحقيقة الا وهماً ٧٩
● شبكة الاتصالات الفضائية لعام ٢٠٠٠ ..... ٨٣

● حوار مع :
ريتشارد ليكي ٩٤

● ملف العدد :
● أثر الديمقراطية في النمو الاقتصادي ١١٨
● صحة الأمم تأملات في التناظر والقياس بين علم الطب وعلم الاقتصاد ١٣٥

● التقرير العلمي ١٥٥
● تقارير المراسلين ١٦١
● كتب جديدة ٢١٧

تصدر دورية كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت

● المستشرقون والاستشراق :
في كتابات محمد كرد على

بقلم : جوزيف اسكوفيتز
ترجمة : كامل مصطفى اللحام

يقول محمد كرد علي في مذكراته عن المستشرقين انهم يؤدون عملا عظيما رغم ان لغتنا وحضارتنا غريبة عليهم .

في السنوات الاخيرة ازداد الوعي بنشاطات المستشرقين وذلك نتيجة لظهور كتاب الاستشراق Orientalism لمؤلفه ادوارد سعيد . وكما هو معروف لدى الدارسين والعلماء الذين يدرسون عن الشرق فان هذا الكتاب لا يعدو ان يكون واحداً من الابحاث الحديثة التي تعالج هذا الموضوع . فهناك آخرون تناولوا الاستشراق بالنقد ومن بينهم الطيباوي وعبد الله العروي وقبلهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . كما ان بعض المستشرقين الغربيين شغلوا انفسهم بتقييم اعمال المستشرقين الآخرين وانتقدوا حتى النقاد انفسهم . ومن امثال هؤلاء خ.ج كارد بنرغ ، و.ب ليتبل والمشاركون في **المؤتمرات التي عقدت في الفترة الاخيرة** .

وهذه ليست سوى نماذج للمناقشات التي عالجت موضوع الاستشراق والتي ظهرت في المائة سنة الاخيرة . ويجدر بنا ان نلاحظ ان كثيراً من هؤلاء الكتاب كانوا سلبيين في نقدهم الى ابعد الحدود . ومن بين النقاد والباحثين الاقل شهرة ممن شاركوا في مناقشة موضوع المستشرقين والاستشراق المفكر السوري المتشدد محمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) . وربما كانت شهرته لدى الدراسين لتاريخ وحضارة الشرق الاوسط كمؤلف لكتاب « خطط الشام » الذي يشتمل على ستة مجلدات عن تاريخ سوريا الكبرى، إلا أن نشاطه اثناء حياته لم يكن مقصورا على كتابة التاريخ بل تعدى الى الكتابة في الصحف والمجلات ونشر المخطوطات العربية من العصور الوسطى . كما انه سجل سير مشاهير المسلمين في الماضي والحاضر ودوّن رحلاته في أوروبا والشرق الاوسط . وتقلد منصب وزارة التعليم في سوريا مرتين وكان احد المؤسسين للمجمع اللغوي بدمشق .

عنوان المقال الاصلي :

Orientalists and Orientalism in the Writings of M. Kurd Ali

مصدر المقال : International Journal of Middle East Studies, February 1983

وهو لم يخصص كتابا كاملا لموضوع الاستشراق بل نجد جل مناقشاته الشاملة حول الموضوع في المجلد الاول من كتابه « الاسلام والحضارة العربية » . ويذكر في مقدمة كتابة انه شارك في المؤتمر العالمي الثامن للمستشرقين في ليدن عام ١٩٣١ ، وطلب منه احد المشاركين في المؤتمر أن يشرح الاسباب التي دعت الكتاب الغربيين الى الاساءة للاسلام وللعرب وحضارتهم . والفصول الاولى من كتبه تبحث التعليقات السلبية التي ادلى بها عدد من المستشرقين . وفي رده على هذه التعليقات يحاول كرد علي ان يصحح الاغلاط والاحكام الخاطئة ، ومن ثم يعرض في الاجزاء المتبقية من كتابه صورا صحيحة عن الاسلام وحضارة العرب .

ولابد لنا من ملاحظة بعض النقاط قبل ان نناقش وجهة نظر كرد علي في المستشرقين والاستشراق . فهو اولا لم يحدد ماهية الاستشراق والواضح ان اهتماماته تتركز على ديانة العرب المسلمين وتاريخهم وحضارتهم ثم هو لم يحدد ما يقصد بكلمة « المستشرق » اذ يبدو انه يعتبر كل من كتب في هذه الموضوعات مستشرقا بغض النظر عن مقدار علمه . وكرد علي كما يوحي اسمه لم يكن من اصل عربي ، فابوه كردي وامه جركسية . ومع ذلك فهو يعدّ نفسه فردا من الامة العربية . وكان متمكناً في اللغة العربية ونصيراً لقضية العروبة والاسلام ، معتبراً ذلك مساهمة عظيمة يؤديها العرب للعالم ، وهو ينظر الى العرب كاهمّ مجموعة ضمن أُمّة الاسلام . وقد كان يوما ما من مؤيدي الامبراطورية العثمانية ، الا ان نظرته تبدلت قبل الحرب العالمية الاولى ، ويظهر ذلك من كتاباته حول الاستشراق فهي تعكس نزعة انحياز واضحة نحو العرب .

والنقطة الثانية ذات الاهمية الخاصة لموضوع بحثنا هي ان كرد علي كانت له اهتمامات بعيدة بالاستشراق وصداقات مع عدد من المستشرقين . وقد قام برحلات ثلاث الى اوروبا بين عامي ١٩٠٨ و ١٩٢٢ وقدّم وصفا لتجاربه وانطباعاته في كتابه « غرائب الغرب » الذي نشره عام ١٩٢٣ ، وهو ذو اهمية لدينا نظرا لاحتوائه على تاريخ الاستشراق في كل بلد زاره في رحلاته (مثل انجلترا وفرنسا والمانيا وهولندا وايطاليا واسبانيا) . وفي رحلاته هذه التقى عدداً كبيراً من المستشرقين من بينهم المستشرق الالماني كارل بروكلمان الذي زوده بكتاب عن تاريخ الاستشراق في المانيا باللغة العربية ، وقد ادرجه كرد علي في كتابه « غرائب الغرب » . ومنذ عام ١٩١٤ بدأ كرد علي في تزويد مجلة « المقتبس » بمواضيع تبحث في الاستشراق الاوروبي ، كما انه تكلم عن الموضوع ذاته امام المؤتمر العالمي السابع عشر للمستشرقين الذي عقد في اكسفورد وتتميز مناقشاته في تلك الحقبة المبكرة بالموضوعية والتجرد ، وهي تختلف كثيراً عن مناقشاته التي يعرضها في كتابه « الاسلام وحضارة العرب » ومن ناحية اخرى نجد ان آراءه التي كان يبديها كناقد ادبي في مجلة المَجمع اللغوي بدمشق حول علم الاستشراق تتسم بالنقد اللاذع . وفي هذه المجلة نجد تاريخ الاستشراق في بلدان مختلفة من اوروبا . وكانت هذه المعلومات التاريخية ترد من تلك البلدان بعد ان يقوم كرد على بترجمتها الى اللغة العربية .

ومن المعروف ان كرد علي قد التقى اضافة الى بروكلمان بالمستشرق جولتسهير Goldziher في بودابست ، وحل بايطاليا ضيفاً لبعض الوقت على الامير كاتاني واتصل

بكثير من المستشرقين الآخرين الذين كانوا اعضاء في المجمع اللغوي بدمشق ومنهم ما سينون ويتضح لنا من مذكراته انه قبل الحرب العالمية الثانية كان يجري الاتصلات مع عدد من المستشرقين (الذين لم يذكر اسماءهم) والذين ، حسب اعتقاده ، كانوا عملاء لحكوماتهم يستهدفون معرفة وجهة نظره حول قضايا مختلفة . وهو لايخفيْ استهجانه لهذا الامر اذ يرى ان المستشرقين يعملون دوما لصالح بلدانهم .

والنقطة الاخيرة التي نود ذكرها هي ان الحوار الذي ورد في بداية كتابه « الاسلام والحضارة العربية » يبدو وكأنه موجه بالدرجة الاولى الى العرب المسلمين قبل المستشرقين الغربيين . فليس هنالك شاهد على نشر اي من تلك الملاحظات بلغة من لغات الغرب رغم مقدرة كرد علي وطلاقته في الفرنسية . كما ان اسلوب الكتابة يثبت انها موجهة الى القاريء العربي . حيث يبذل كرد علي قصارى جهده ليثبت براعته وتفوقه في اللغة العربية ، فتراه احيانا يستطرد في السجع واستعمال الكلمات المترادفه الكثيرة لبيان فكرة واحدة كما يستشهد بالشعر العربي . ونحن نعلم ان لديه المقدرة على استخدام النثر العادي كما هو واضح في مقالاته المنشورة في جريدته ومجلته وفي كتابه « اقوالنا وافعالنا » ، الا أنه اراد هنا استخدام الاسلوب المنمّق .

واخيرا فان الطريقة التي يبسط بها حواره واستنتاجاته تبين انه يوجّه القول الى عربي مسلم . ومع انه يبحث الاسباب وراء النظرة السلبية لدى بعض المستشرقين الغربيين الذين يحدد شخصياتهم ويقتبس من كتاباتهم نجده وقد ذهب الى ابعد من ذلك حين يستشهد باقوال المستشرقين الذين يعظمون امجاد الشرق الاسلامي وانجازاته . ومن خلال نقاشه نرى أن كرد علي يشير الى مسألة نجدها في كتاباته الاخرى وهي ان كل امة تدرس تاريخها لتبني انجازاتها على مآثر اسلافها ، وامة الاسلام مطالبة بمثل ذلك . واهمية هذه المسألة معترف بها عالميا حتى ان سكان اميركا الجنوبية الذين تعوزهم القاعدة التاريخية الحقيقية قد اختلقوا لانفسهم واحدة لمساعدتهم في طريق التقدم . ومن الأهمية بمكان ان يدرس العرب المسلمون تاريخهم ويفتخروا به وبحضارتهم كي يتقدموا وهم في وقتنا الحاضر يوجهون جُلّ هّمهم لتاريخ اوروبا وحضارتها ويقلدونها دون تمعن وتمييز ، ولا يكلفون انفسهم مشقة الدراسة لتاريخهم ، وربما كانوا اكثر اهتماما بجمع الثروات . وهنا كما في اماكن اخرى يذكر كرد علي بالتفصيل والثناء مزايا الحضارة العربية (والتي هي عنده الحضارة الاسلامية) الا اننا في هذا الكتاب موضوع البحث نراه يذهب بعيدا الى استخدام الملاحظات والاستنتاجات الخاصة بالمستشرقين الغربيين لدعم وجهة نظره .

لذا فانه يتحتم ان ننظر الى تعليقاته على موضوع استشراق في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » كجزء من مجمل كتاباته العامة وليس مطلب وحيد محدد . وملاحظاته هنا تتميز بالتفصيل والشمول ، وكثيراً ما تكون سلبية اكثر مما هي في اماكن اخرى (من كتاباته) ، ويندر فيها ان نستمع الى وجهة النظر الخاصة بمفكر عربي مسلم حول مواقف وثقافة المستشرقين الغربيين ، او نتعرف الى مشاعر واحاسيس العربي المسلم . فالنقاش الذي نقرأه بعد ذلك مبني بصورة اساسية على الفصول الاولى من الكتاب مع الاشارة الى كتابات اخرى عندما يكون ذلك مناسباً .

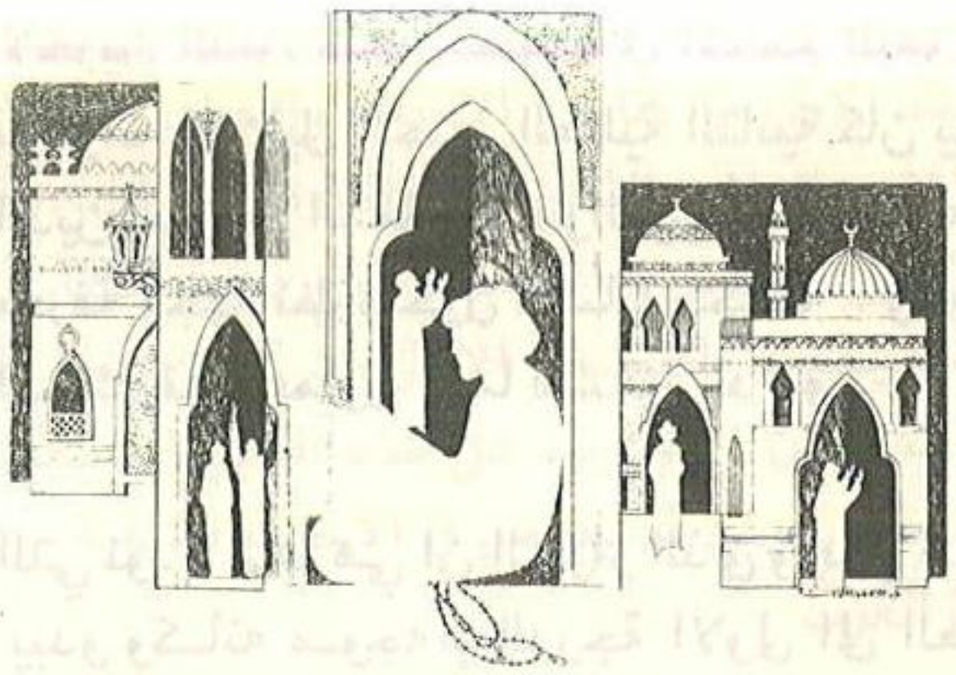

وكرد علي ينحي باللائمة على وجهات النظر السلبية لبعض المستشرقين الغربيين خصوصاً بشأن الامور الدينية والتاريخية : والنظرة الدينية هي الاكثر صعوبة عند محاولة تصحيحها . لقد لُقن الناس في الغرب ان النصرانية تتفوق على الاسلام ، وان رسالتها هي تحويل المسلمين الى الديانة المسيحية وفي المقابل فان دعوة الاسلام تتمثل في نشر الرسالة الى البشرية كافة . وقد ادت هذه النظرات المتباينة الى صراع بين الديانتين تحول بعد ذلك الى نزاع سياسي وعسكري تمثل في الحروب الصليبية ثم بعد ذلك في الحروب التي قامت بين الامبراطورية العثمانية والدول المسيحية في اوروبا . وهذا العداء السياسي للاسلام زاد من العداء الديني ، وكانت النتيجة ان الغرب لم يحاول ان يدرس عقيدة هذا العدو المسلم او حضارته او انجازاته . الا ان الوضع طرأ عليه بعض التحسن في اواخر العصور الوسطى وبداية عصر النهضة حين بدأت دراسة اللغة العربية في الجامعات الغربية ؛ مع ان الغرض الحقيقي لذلك كان نشر الديانة المسيحية وبالتالي استعمار العالم الاسلامي بهدف الفتح والتجارة .

والافكار العدائية المتوارثة ضد الاسلام استمر اثرها على العلماء المحدثين الذين يفترض فيهم التحرر من الافكار الخاطئة والتحامل والتميز بالاستقلال الفكري ولما كانت اوروبا المسيحية قد خرجت منتصرة على الاسلام فقد اضيف بعد جديد للعلاقة بين الشرق والغرب يتمثل في الرغبة الطبيعية لدى المنتصر لمعاملة المغلوب بروح العداء والازدراء فترى الغربي المسيحي يعظم انجازات اليونان والرومان التي يعتبرها اساس النهضة الاوروبية متجاهلا العرب المسلمين الذين كان لهم الفضل في حفظ العلوم القديمة وتعزيزها ونقلها الى الاجيال الاوروبية التالية . ويرتبط بروح العداء في معاملة لمغلوب ميل لتجاهل اخطاء المنتصرين . فنرى على سبيل المثال ان استعمار اميركا في نظر كرد علي يعتبر خطأ فاحشاً ، بينما يعده مؤرخوه الغرب انجازا رائعا . وهذا يعني بوضوح ان للاوروبيين عيوبا كثيرة ا ولكن فيما يتعلق بالعالم الاسلامي فعيوبه ومشكلاته هي ما يجرى بحثه .

ومن المشاكل الاخرى ان كثيرا من المستشرقين يبدون آراء عاقة مبنية على شواهد محددة وضيقة . فنرى مثلا ان الاتصال الوحيد الذي قام به ارنست رينان مع العرب المسلمين كان لقاؤه ببعض صيادي السمك في سوريا . وعلى هذا الاساس بنى رأيه القائل ان المسلمين كافة يعارضون العلم الحديث . واخيرا فان المبشرين النصارى وخاصة اليسوعيين قد انكروا ما قدمه العرب المسلمون لحضارة العالم ، كما انهم شوهوا

الحقائق ، وكان غرضهم من ذلك جذب الناس لاعتناق النصرانية . ويرى كرد علي ان هذا الموقف من جانب اليسوعيين يدل على حقدهم ؟ حيث انهم يتصرفون بهذا الاسلوب في البلاد الاسلامية التي يلاقون فيها حسن الاستقبال والتسامح اكثر مما يلاقون في أوطانهم .

إلا أن هذه المحاولات للتقليل من اهمية انجازات الحضارة العربية ليست مقصورة على الغرب ، ولكن هذه النشاطات ليست الا جزءا من حركة شاملة يدعوها كرد علي « الشعوبية » . وهذه الحركة ليست جديدة على اي حال بل كان ظهورها قبل زمن بعيد . والفرس هم القادة التقليديون لهذه الحركة منذ ظهورها في العصور الوسطى . اما في العصر الحديث فان اسم الشعوبي ينطبق كذلك على الغربيين (وخصوصا المستشرقين المتحاملين على الاسلام والعرب) كما ينطبق على بعض الشرقيين (وهم المنادون بالحركة الفنيقية والفرعونية) . ومن الامور التي يبذل الشعوبيون جهدهم لمعالجتها في مجال الانتقاد : صدق النبي محمد (ص) والقرآن الكريم وعقيدة الايمان بالقضاء والقدر وتعدد الزوجات والطلاق والحجاب والرق وشرب الخمر والربا والتصاوير . وفي كتابه « الاسلام والحضارة العربية » يفرد كرد علي فصلا خاصا لمناقشة هذه القضايا . ويناقش في مواضع اخرى من الكتاب تهما اخرى ضد الحضارة العربية مثل ما يدعيه البعض من مسئولية العرب عن حرق مكتبة الاسكندرية الشهيرة وعدم تسامح الدين الاسلامي مع البحث العلمي وان ما تعانيه الدول العربية من ضعف وسوء تنظيم يعود الى عجز ونقص في الدين الاسلامي .

والمثير حقا في ردود كرد علي على مختلف الامور والتهم يتمثل في شكل تلك الاجابات . فعموما عدا بعض الاستثناءات نجد ان نهجه يقوم على الاستشهاد باقوال المستشرقين الذين تأتي آراؤهم مؤيدة للعرب وفيها اطراء للاسلام . فهو بدلا من مناقشة ابعاد كل تهمة والرد عليها نقطة بنقطة وبالتفصيل نراه يرسل ملاحظاته العاطفية العدائية . فمثلا نرى ان رده على اتهام العرب بعدم التحضر يتمثل في صفحات من شهادات الكتاب الاوربيين الذين يمتدحون الاسلام والعرب الى حد زعمهم بانه كان من مصلحة اوروبا لو ان شارل مارتل هزم في معركة بواتييه (بلاط الشهداء) عام ٧٣٢ م (١١٠هـ) .

ومن الاساليب الاخرى التي يستخدمها كرد علي في الرد على النقد الموجه ضد الاسلام هي بيانه عن طريق المقارنه سوء الحال الذي كان ، وقد يستمر ، في بلاد الغرب في ظل النصرانية . ومثال ذلك ان بعض المستشرقين يوجهون للاسلام تهماً بالتعصب ، فيرد عليهم كرد علي بعرض الشواهد (والتي يكون بعضها من المستشرقين الغربيين) على سماحة الاسلام في تعامله مع النصارى واليهود حتى ان الكثير منهم شغل المناصب الرفيعة في الدولة الاسلامية . وهو يتبع الاسلوب نفسه حين يضع اللوم في انحطاط اسبانيا ليس على الحكم الاسلامي بل على الحكم المسيحي الذي جاء بعد ان غادر المسلمون البلاد ، ويقدم الشواهد على المستوى الرفيع للحضارة الاسلامية في اسبانيا .

والشواهد المؤيدة للاسلام والتي يقدمها المستشرقون الغربيون تشكل ظاهرة جلية في نقاش كرد علي لقضية الاستشراق ، فنجده في بعض المواقف يكون مضطرا للدفاع عن احد هؤلاء المستشرقين المتعاطفين امام هجمات احد الشعوبيين المتسمين بالعنف الا وهو اليسوعي هنري لامنس Lammens وكرد علي يعنف في نقده لامنس وفي كتابه « الاسلام والحضارة العربية » كرس صفحات عديدة لمهاجمة آراء لامنس التي تشتمل على نظرته للعرب كأمة ليس لديها القابلية لاي مظهر حضاري ، واطرائه للصلبيين والانتقاص من قيمة صلاح الدين ومثل ذلك من الامور ، وكذلك استخفافه المزعوم بكبار المؤرخين العرب امثال الطبري وابن خلدون . ومن المستشرقين الاثيرين لدى كرد علي غوستاف لوبون Gustave Lebonالذي تعرض للنقد من لامنس بعدم معرفته ولو بكلمة من اللغة العربية مما دعا لامنس الى رفض دراسته عن العرب واعتبارها غير سليمة . ويذهب كرد علي الى حد التطرف في دفاعه عن لوبون حين يقول ان معرفة اللغة ليست ضرورية لدراسة الحضارة . واذا كان الامر كذلك فكيف يتأتى لنا ان ندرس عن بلاد اليونان ومصر في القديم دون علم باللغة الاغريقية واللغة الهيروغليفية . وعلاوة على ذلك فقد ترجمت غالبية النصوص العربية الى اللغات الاوروبية (كذا) . وطبقا لما يرى كرد علي فان السبب الوحيد الذي جعل لامنس ينقص من قيمة لوبون (ومستشرقين آخرين) هو رغبة الاول في الحط من منزلة الامة العربية .

ومن المثير في هذا المجال ان احد المستشرقين الذين يهاجمهم لامنس وهو ارنست رينان يلقي تأييدا من كرد علي . ويدعى لامنس ان رينان لا يتقن اللغة العربية . وقد هوجم رينان في الفترة الاخيرة من ادوارد سعيد بسبب نقده للاسلام والعرب ، كما هاجمه قبل ذلك الافغاني ومحمد عبده . ولكن كرد علي يغفر لرينان اتهامه للاسلام بأنه لا يؤيد البحث العلمي . ويذكر ان آراء رينان بنيت على لقائه ببعض صيادي السمك السوريين . ويستمر كرد علي في دفاعه عن رينان قائلا بأنه لو بقى حيا الى ايامه ولقى العرب المسلمين ذوى الافكار الحديثة فلربما تراجع عن آرائه في الاسلام . ويرى كرد علي ان رينان ذكر في كتاباته انه حين دخل احد المساجد تملكه شعور بالتواضع يخالطه اسف لكونه ليس مسلما . ويبدو ان هذا الاقرار من جانب رينان كان كافيا للعفو عنه من كرد علي الذي دافع عنه امام لامنس.

ومما لا شك فيه ان كرد علي يرى ان لامنس هو اكبر عدو للمسلمين والعرب بين المستشرقين ، وان لويس شيخو زميل لامنس اليسوعي ، لا يختلف كثيراً عنه . وكرد علي يحب ان يتمثل بالقول بان « الاب » لامنز كان في مجال الاستشراق مثل بطرس الناسك في الحروب الصليبية ، اي ان كلا منهما عدو للاسلام . واللوم يوجه الى لامنس وشيخو لانهما ينسبان الانجازات العظيمة في الادب العربي الى العرب المسيحيين متجاهلين ما ساهم به العرب المسلمون . واللوم الذي يوجهه كرد علي نحو لامنس يتعدى مجال الادب الى دراسة التاريخ في مؤلفين « دائرة المعارف الاسلامية » و « مختصر تاريخ سوريا » . وعلى العموم فهو يصف لامنس بانه عالم وضيع يخلط بين القرآن والشعر ويتجاهل او يسيء الى كبار المؤرخين العرب ويحط من قيمة الانجازات العسكرية والسياسية للعرب

للمسلمين . وينقم كرد علي على ادعاءات لامنس بان الفتوحات الاولى كانت مجرد غارات للحصول على الغنائم وان العرب المسلمين حين فتحوا البلاد تركوا اهلها بلغتهم وانظمتهم الادارية نظرا لعدم قدرة العرب على الحكم . وليس كما يزعم كرد علي ان ذلك كان لروح التسامح عند المسلمين . وكرد علي يبدي سخطه من الطريقه التي تناول بها لامنس سيرة صلاح الدين الذي يصفه بالضعف والجشع بالمقارنة الى الصلبيين اهل الشجاعة ومكارم الاخلاق ! هذه الاوصاف والاتهامات ازعجت كرد علي مما جعله يلجأ للرد عليها بدفاعاته وتفسيراته الخاصة ، اضافة الى إشارته لكتابات الاوروبيين الذين انتقدوا معلومات لامنس واطرائه المفرط للصليبيين .

وفي الفصل الخامس من المجلد الأول لكتاب « الاسلام والحضارة العربية » يتعرض كرد علي للقضايا العشر الهامة التي يشير إليها الشعوبيون بصورة مستمرة . (يتحتم أن نتذكر أن كلمة « شعوبي » يقصد بها بعض المستشرقين الغربيين الذين ينتقدون الاسلام والعرب وكذلك النقاد المشارقة ، ومع ذلك فان يتضح أن كرد علي يركز في هذا الجزء وفي بقية الكتاب على النقاد الغربيين .) وهذه القضايا العشر يمكن تناولها ضمن فئات أربع طبقا للمواضيع التي تجري مناقشتها أو الطريقة التي يتناولها بها كرد علي . الفئة الأولى تشمل الموضوعين الأولين وهما : صدق النبي محم (ص) ودعوته للنبوة ، والثانية تشمل صدق الرسالة المحمدية والقرآن الكريم ، والموضوع الثاني يشمل بحث الدين الاسلامي من ناحية عامة والأدلة على عظمته .

والأسلوب المتبع في مناقشة هذه القضايا يكاد يكون متشابها في الحالتين . فكل منها يُستهل بوصف موجز أو بطرح أمثلة من التقولات ضد الرسول (ص) والقرآن الكريم ، والتي تواجه بعرض شامل للآراء المعاكسة . ويلاحظ أن النسبة بين الرد والاتهام معقولة . فالنقاش حول صدق النبي محمد (ص) يقع في أربعة أسطر من الاتهامات السلبية متبوعة بثلاث صفحات من الدفاع[٤٠] والرد على الانتقادات الموجهة إلى القرآن بأنه غير منظم ورديء التركيب ومقتبس من الكتب السماوية الأخرى[٤١] يأتي في صفحة واحدة بصورة مجددة ، ويتلو ذلك صفحات ست من الشواهد على عظمة الاسلام . ورغم عدم ذكر أسماء ذوي التعليقات السلبية (التي تنتقد وتتهم) نجد أسماء أصحاب التعلقات الايجابية المؤيدة ، وان معظم الصفحات قد خصصت تقريباً بالكامل للشواهد المقتبسة . وغالبية الكتاب الذين يستشهد بأفوالهم من الأوروبيين . وبعض هؤلاء علماء ذوو شهرة ممن كتبوا بتوسع عن العالم الاسلامي . إلا أن البعض الآخر بعضمغمور ر أو غير معروف ، كما أن آخرين اشتهروا بانجازاتهم خارج مجال الدراسات الشرقية . فعلى سبيل المثال يورد كرد علي عبارات الاعجاب التي جاءت على لسان ميور Muir ولين بول Lane Pooleبحق النبي محمد (ص)[٤١] ومن ماسينيون بحق محمد والاسلام[٤٣]. أما المستشرق غوستاف لوبون الاثير لدى كرد علي فيأتي ذكره[٤٥] رغم أنه لم يحرز شهرة كبيرة في الدوائرة العلمية كا أننا نجد ذكرا لأشخاص قليلي الأهمية من أمثال جين ميلاّ Jean Meila الذي ألف كتابا عن القرآن باللغة الفرنسية[٤٦] . كما أننا نجد بعض الشواهد من برنارد شو[٤٧] وتولتسوي[٤٨] وجان جاك رسو[٤٩] . وهنالك نتف صغيرة من المناقشة جاءت من ملاحظات بعض العرب

المسلمين المعاصرين . ومما يناسب المركز الاجتماعي المميز للنبي محمد(ص) يورد كرد علي بعض اشعار خليل مطران[٥٠] وهي كل ما يتضمنه هذا الفصل من الشعر ، ومن زكي مبارك شرح لطبيعة القرآن المعجزة ومنفعة للمؤمنين . ويختتم الجزء المتعلق بالاسلام بالاشارة إلى البحث الذي كتبه العالم اللبناني سعيد خوري الشرتوني والذي دحص فيه ادعاءات غولتسهير بان الشريعة الاسلامية تعتمد على القانون الروماني[٥١] . ونادراً ما يبدي كرد علي رأيه الشخصي هنا ، فهو يحصل على بغيته من التعليقات المؤيدة فيما كتبه الآخرون . وعلى العموم فان انتقاء كرد علي للشواهد المقتبسة لا يمكّن القارىء من ادراك آرائه الخاصة في هذه المواضيع . وهو يسارع إلى تحدي أولئك الذين يرون ضعفاً أو نقصاً في أصالة الاسلام ورسوله ورسالته . ومن طريقة اختياره للشواهد المقتبسة يمكننا الحكم على نظرته الدفاعية عن النبي (ص) والتي تتسم بالاحترام . وهو يرى في القرآن معجزة يدعو إلى التجديد ويمجد العقل والتفكير .

والفئة الثانية من قائمة القضايا (العشر) التي يثيرها كرد علي الموضوعان الثالث والتاسع الذان يشملان عقيدة القضاء والقدر وقضية الربا . وتختلف هذه الفئة عن سابقتها ، فهي لا تضم أية شواهد مقتبسة من أي غربي بل تعتمد بدلا من ذلك على حجج العرب المسلمين المحدثين واستشهاد من القرآن وتعقيب من كرد علي نفسه . والنقد الموجه من الأوروبيين إلى الايمان بالقضاء والقدر يرتكز على ادعائهم بأن ذلك قد صنعه حالة من الاستسلام والوهن بين المسلمين ، وأدى إلى صنعه عادات سيئة واعاق التقدم . وخلاصة الاتهامت وغالبية الاجابات مستقاة من كتابات محمد عبده حين يتكلم عن هذهالعقيدة ويقرر فائدتها للمؤمنين بها ، فهي تمدهم بالعون والثبات في مواجهة الموت والفقر وفي ميادين القتال . وعلى أية حال فان الايمان بفكرة اعتماد المؤمن كليا على الله كانت محصورة في طائفة صغيرة في القرن الرابع الهجري ، وهي في الوقت الراهن لا ترد على ألسنة المسلمين . أما المشكلة الحقيقية فقد برزت بعد القرن الثالث الهجري عند ظهور الصوفية المتطرفين الذين أساءوا فهم هذه العقيدة مما أدى إلى تدهور الاسلام[٥٣] .

وينطلق كرد علي من هذه النقطة ويقدم الحجج باسلوب مميز يعتمد على المقارنة بين الاسلام والنصرانية ويخلص إلى نتيجة مؤداها أن آيات الانجيل التي تعرض لهذا الموضوع تفوق في عددها آيات القرآن . وعلى أية حال فقد شهد النصارى والمسلمون فترات من الرخاء ، ويعود ذلك إلى الاعتدال فيما آمنوا به من اتباع الطريق السوي بين العقيدة والمبادرة الشخصية طبقا لروح العصر . أما ما شهدناه من الاتكال الكلي على هذه العقيدة لدى المسلمين أو أهل الغرب فقد انحصر في الجماهير المتمسكة بالدين والورع ولس بين القادة والحكام . ويختتم هذا الجزء من الكتاب بسلسلة طويلة من الآيات القرآنية التي تثبت تفوق العمل في الأهمية على التواكل (والكسل)[٥٤] .

ان الذين يوجهون نقدهم للاسلام يعتبرون أن تحريم الربا أو اقتراض الأموال بفوائد كان سببا في ضعف المسلمين وفقرهم . وردُّ كرد علي الفوري على هذا (الاتهام) يتمثل في الاستشهاد بالآيات القرآنية التي تحرم الربا وتبيّن العقوبة الالهية للذين

يمارسونه ، وتبع هذه الآيات تفسير يوضح معناها[٥٥] ثم يتناول النقاش بنفسه مبيّناً أن أحسن الفوائد تأتي من العمل الجاد أما المكاسب الأخرى فتذهب سريعاً . ومع ذلك فاننا نراه يلقي ضوءاً يوضح حقيقة الموقف حين يقول أنه من الجائز والمقبول أن نتلقى الفوائد على حسابات التوفير في البنوك . أما لمحرم فهو تقديم القروض لآجال طويلة وتراكم الفوائد بمرور الزمن[٥٦] . وأخيراً فان اقراض الأموال يتحتم اعتباره عملا صالحا ، ذلك أن المال يعطى إلى محتاج ، ويجب على المدين ألا يرد إلى المقرض (الدائن) أكثر من ماله ، إلا أنه من الجائز أن يقدم له هدية أو نصيباً من الأرباح التي حصل عليها من استثماره للمال . وقد بدأت المشاكل حين أخذ الغربيون يعتبرون اقراض الأموال عملية استثمارية وليست من أعمال الخير ، وقد أدى ذلك إلى حالات افلاس كثيرة بين الأفراد والبنوك بعد الحرب العالمية الأولى[٥٧] .

في القضيتين اللتين عالجهما كرد علي ضمن هذه الفئة نراه يغفل ذكر أية مصادر غربية لدعم رده على الانتقادات الموجهة ضد الاسلام ، وربما يعود ذلك إلى فشله في إيجاد أية شواهد يمكنه اقتباسها من هذه المصادر . ومن المثير أن رده في دحض الانتقادات ينتهي بتكذيب المواقف التي يعرض لها النقاد وإن الحقيقة تكمن في التوافق مع العقيدة الاسلامية . وفي قضية القضاء والقدر يدعو إلى الاعتدال بما يتلائم مع روح العصر . وفي قضية القروض المالية والربا يبين طرقا للتغلب على التحريم وتطويقه ، وهو يستهلّ النقاش بدفاع قوي عن العقيدة الاسلامية ثم يتابع وصفه للحقيقة بتفسير مخفف لنص الشريعة . وفي كلا الحالين يأتي ذكر الموقف في العالم المسيحي الغربي مع توجيه انتقادات محدودة .

والفئة الثالثة في مواضيع النقاش تتعلق بالمكانة الاجتماعية للمرأة وعلى الأخص ما يتعلق بتعدد الزوجات واجراءات الطلاق والحجاب (وهذه تمثل القضايا الرابعة والخامسة والسادسة من المواضيع العشرة التي حددها كرد علي) واسلوبه هنا غالبا ما يبدأ بالنقاش عارضا حججه الخاصة مع بعض الاستشهادات من آيات القرآن ، ويتبع ذلك عرض لآراء العرب المسلمين مثل قاسم أمين . وينتهي من مناقشة كل من القضايا بشواهد مقتبسة من الكتاب الغربيين المؤيدين لوجهات النظر السابقة ، أو بالاشارة إلى الوضع السائد والأكثر سوءاً في بلاد الغرب المسيحية .

والنقد الذي يوجهه الغربيون لقضية الطلاق في الاسلام يواجه بتقديم الشواهد على ارتفاع نسبة الطلاق في كل من أوروبا والولايات المتحدة . كما أن الطلاق لم يولد مع الاسلام ، فالاسلام يجيزه عند الضرورة فقط[٥٨] . وكذلك تعدد الزوجات مباح ضمن تحفظات ، وقد بدأت ، هذه العادة في التلاشي . وعلى أية حال فكما ذكر لوبون فان جماعة المورمونيون المتميزون بالتقدم والنجاح قد مارسوا هذه العادة في أميركا الشمالية فترة من الزمن حتى منعتها الحكومة الأميركية[٥٩] . وبعد انتهاء الحرب العالمية أباحت الحكومة الألمانية تعدد الزوجات بسبب موت اعداد كبيرة من الرجال في الحرب[٦٠] . ويقترح الكاتب الفرنسي جورج اون كويتل في كتابه عن المرأة تعدد الزوجات مشيراً إلى أن كثيراً من الرجال يحتفظون سرا بخليلات ، مما يدعو إلى اضفاء الشرعية على هذه العادة[٦١] .

ثم أن الشعوبيين يوجهون نقدهم لتطبيق عادة الحجاب في الاسلام ، قائلين أن ذلك يعطل من مشاركة المرأة للرجل في الحياة الفكرية والمادية ويدعو إلى البطالة ويعتبر النساء مجرد دمى دون مستوى الانسان ، وقد ساهم ذلك في انحطاط الاسلام . ويستهل كرد علي دفاعه بذكر الآيات القرآنية التي تبين الغرض من الحجاب وهو غرس الأخلاق الحميدة والاحتشام وتجنب مغازلة النساء وضمان السعادة في بيوت الزوجية[٦٢] . ثم يورد أمثلة من صور التاريخ الاسلامي بحيث لم يكن الحجاب عائقا للزوجات حال دون مشاركتهن في الحروب أو دخول عالم الكتابة ورواية الحديث (النبوي)[٦٣] . ولقد تعقدت المشاكل لأن المسلمين أساءوا فهم الخواص الحقيقية للحجاب . وحسب ما ذكره قاسم أمين فان المسلمين سيعدلون في اسلوب استعمال الحجاب دون أن يتخلوا عنه نهائيا . وينطلق كرد علي من هذه النقطة ليتنبأ بأن زيادة الاحتكاك بالعالم الغربي سيؤدي إلى هجر الحجاب بصورة تامة[٦٤] . إلا أن ذلك سيتم بالتدرج الطبيعي ، ولا حاجة للتعجل في الأمور[٦٥] .

وعلى أية حال فالجميع يعلم أن الوضع الطبيعي للمرأة أن تكون زوجة وأمّاً . وعمل المرأة خارج بيتها يفضي إلى عدم الوفاء للزوج وهذا على الأقل ما يقول برتراند راسل[٦٦] . كما أن النساء رغم حصولهن على التعليم لم يقدمن مساهمات ذات أهمية للحضارة كما يقول فولتير ، وان الأعمال الأدبية العظيمة في العالم الغربي كانت من صنع الرجال[٦٧] . وأخيراً وكما يقول الكاتب الفرنسي لارناك فان النساء لسن إلا مجرد مجموعة من العواطف والانفاعالات دون مقدرة على التفكير الجدّي . وحيث أن جسم المرأة أصغر من جسم الرجل فان عقلها يكون كذلك نسبيّاً وبمعنى آخر ، فما دام العلماء الغربيون يحملون هذه النظرة التي توحي بعدم الرضا عن المرأة فلماذا ينتقدون الاسلام حين يضع قيودا على نشاطاتها ؟

والاسلوب الذي يتبعه كرد علي في معالجة هذه النقطة يذكرنا بما اتبعه في مناقشة الفئة من المواضيع حيث يصور حقيقة الحياة الاسلامية أقل حدة وأكثر مرونة مما توحي به النصوص الحرفية لكلمات القرآن ، وأن الموقف في الغرب يمكن تصوره شبيهاً لموقف الاسلام أو أسوأ في رأي الشعوبيين الذين يوجهون النقد للواقع الاسلامي . ويظهر بوضوح تام من اشارة كرد علي إلى كتابات قاسم أمين أنه يتصور اليوم الذي تحصل فيه المرأة على مكانة اجتماعية أفضل . وهو عندما يشير إلى الكتابات الغربية التي تتحدث عن الفساد الذي لحق بالمجتمع حين سمح للمرأة أن تفعل ما تشاء إنما يحاول التعويض عما بنفسه حين يتحقق من المنزلة المنحطة للمرأة في مجتمعه . وليس واضحا ما إذا كان مؤيدا لوضع المرأة هذا . ولكنه يفضل أن يؤيد النظرة الحذرة لقاسم أمين والتي تنبئ بالتبدل التطوري التدريجي .

والفئة الرابعة والأخيرة من مواضيع البحث المتبقية هي حول الرق وشرب الخمر والتصوير (بالرسم أو النحت) . ويعالجها كرد علي بنفس الأسلوب السابق . فهو يرد على الاتهامات ويستشهد بأقوال الغربيين . ونجده هنا أيضا يقرر أن الوضع في الغرب أسوأ منه في عالم الاسلام .

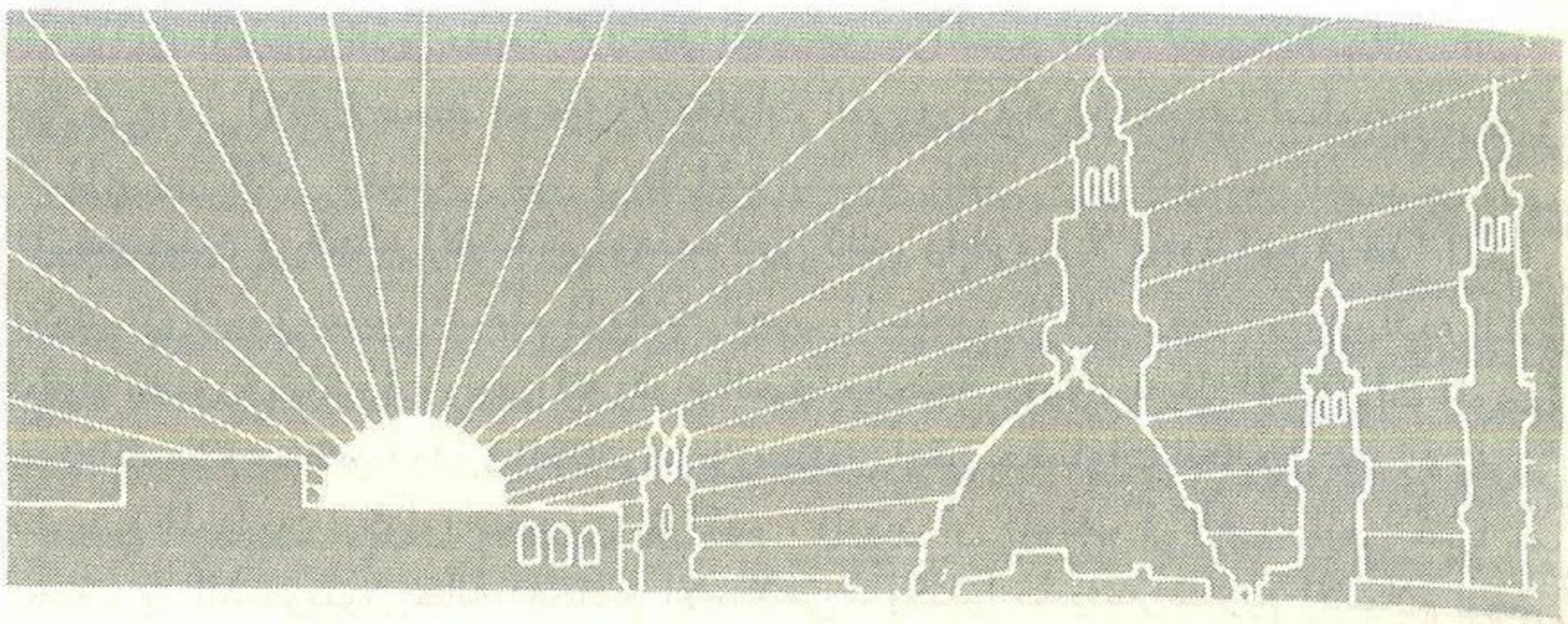

ولم يكن الاسلام هو الذي اخترع الرق ، فقد كان موجودا قبل ظهوره وحتى بعد ذلك وفي كل أنحاء العالم . والعبيد في ظل الاسلام كانوا يلقون معاملة حسنة ، كما أن الاسلام يشجع ويحث على تحرير العبيد[٦٩] . ولا يزال الرق موجوداً في أجزاء من أفريقيا وآسيا بفضل دول الغرب تحت اسم الاستعمار ، وسادة العبيد هم الأوروبيون المسيحيون . ومعاملة العبيد في الاسلام فيها من الرحما أكثر من الصورة الحديثة لها .[٧٠]

وتناول المشروبات الكحولية والميسر أدانهما الاسلام معاً في القرآن . والحكمة من تحريم الاسلام للخمر يقرها الغرب ويعترف بها ، وحكام المسلمين الذين انغمسوا في شرب الخمر هزمهم أعداؤهم وقهروهم .

وأخيراً فان الغرب لم يتفهم تماما (الحكمة) من تحريم الاسلام للرسم والنحت وغير ذلك من أشكال التصوير . وسبب التحريم يكمن في تأكيد الاسلام للوحدانية وتحريمه لعبادة الأصنام ، وليس لأهل الغرب أن يندهشوا لهذا فقد ورد تحريم مشابه في التوراة (سفر الخروج ـ الاصحاح العشرون)[٧٢] . وعلى كل حال فقد قلّت المخاوف من العودة إلى عبادة الأصنام على مدى السنين وازدهرت الفنون رغم تحريمها ، والغربيون يعدّون ازدهارها رمزاً (لتطور) الثقافة[٧٣] . ويختم كرد علي هذا الفصل من كتابه بالموافقة (على وجهة نظر) محمد عبده الذي لا يعتقد أن الشريعة الاسلامية تحظر هذا العمل العظيم ، فخلفاء الدولة الاسلامية زينوا قصورهم بالنقش والنحت والرسومات[٧٤] .

والقضايا التي جرت مناقشتها في المرحلة الأخيرة ربما كانت غير مترابطة كما هو الحال في المواضيع السابقة . ولكن كرد علي يتناولها باسلوبه المعروف الذي يستخدمه ! في الحالات الأخرى . ففي قضية التصوير يوضح كرد علي التحريم قائلا أن الغرب فعل الشيء نفسه . وفي موضوع الرق نراه يبين أن الوضع أكثر سوءاً في الغرب ، وان الشكل الجديد للاستعمار أكثر جوراً وظلما من أية مارسات اسلامية في هذا المجال . أما تحريم الخمر والميسر فلم تفسر أسبابه ، إلا أننا نجد كرد علي ينشد الدعم لآرائه من عدد كبير من الكتاب الغربيين .

إن العرض الذي يقدمه كرد علي لعدد من مواضيع النقد الموجه للاسلام والعرب فيه نوع من الاثارة بسبب نوعية الانتقادات التي ورد ذكرها وبسبب اسلوبه وطرقه في الدفاع عن أفكار معينة . فهو في نقاشه يعتمد كثيراً على كتابات الغربيين وفهم المتخصصين في العالم الاسلامي ومنهم دون ذلك، وآخرون لا وجود لهم في هذا المجال. وكرد علي لا يولي عظيم اهتمام لما يكتبه العرب المسلمون المعاصرون ، وليس لديه الكثير ليقوله بصورة مباشرة ، ويبدو أنه يقرع الحجة بالحجة ـ فهو يرد على الانتقادات الموجهة ضد الاسلام مستعيناً بأبرز الكتاب الذين يمثلون أرقى حضارات العالم في عصره بغرض تشجيع المسلمين ليكونوا فخورين بتراثهم ، وليبيّن أن الموقف في الغرب ليس خيراً مما يصف به الشعوبيون حالة المجتمع الاسلامي . وكثيرا ما يفسر تحريم الاسلام لبعض الممارسات بطريقة توحي أن الحقيقة ليست كما يظهر من النص الحرفي للأحكام (الشرعية) . وهو لا يشير أبداً إلى أن حضارة العرب المسلمين هي بطبيعتها دون حضارة الغرب المسيحي بل نراه بعكس ذلك داعيا العرب المسلمين أن ينظروا إليها بعين الفخر والاعتزاز .

وكرد علي لا يريد المسلمين أن يفخروا بتراثهم وحسب بل أن ينشروا علوم تراثهم ويتخذوا منا أساسا لمزيد من التقدم والازدهار . وحتى لو تحامل بعض المستشرقين على الاسلام والعرب فمن الممكن استخلاص بعض العلوم النافعة من كتاباتهم . ومشكلة المستشرقين الشعوبيين أنهم يميلون إلى وصف الاسلام وعدم التغير والتطور ، وهم بكل بساطة عاجزون عن تقدير صفات المرونة في الاسلام والتي تتضمن قدرته على الاستجابة للقضايا الحديثة والمتغيرة كما حدث أيام الفتوحات الأولى على سبيل المثال(٧٥) . وعلاوة على ذلك فان مشاكل العالم الاسلامي ليس سببها الاسلام بذاته ولكنها مشاكل ومظاهر قصور تخص جنساً ما أو مجموعة ما ضمن الجماعة الاسلامية ، تماما كالأعمال الهمجية في أوروبا أثناء العصور الوسطى والتي لا تلام الديانة المسيحية عليها(٧٦) . وكرد علي لا يريد خلق مواجهة بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي حول الاستشراق والانتقادات . وهو يؤكد أن العالم الاسلامي قد انحدر بعد تفوقه ، إلا أن أهل الشرق يمكن أن يصبحوا مثل الغربيين ، في مجال التقدم على الأقل ، إذا اتخذوا تكنولوجيا الغرب ومدنيته . وأخيراً هو ينشد التفاهم بين الشرق والغرب لصالح البشرية جمعاء(٧٧) .

ومناقشات كرد علي في جوهرها دعوة للعمل ، والهدف من وراء دراسته التاريخ أن يُقدم المبادرة للأمة لتكمل ما بدأه الأسلاف(٧٨) . والشرق الاسلامي بدأ الآن يستيقظ من سباته الذي دام عدة قرون ، وتاريخ الأمة (الاسلامية) في ماضيها وحاضرها جدير بالدراسة بروح علمية عادلة حتى ولو أدى ذلك إلى دراسة مجالات تاريخية أقل اشراقاً . والحقيقة (وهي مُرَّة لدى كرد علي) أن المستشرقين الغربيين قد ساهموا في دراسة وتقدير الحضارة العربية والاسلامية أكثر مما فعل العرب المسلمون . وقد تأثر كرد علي وأعجب كثيراً حين نشرت دائرةالمعارف الاسلامية (Encyclopaeolia oF lslam) رغم مخالفته لبعض وجهات النظر التي تحتويها(٧٩) . وحتى أضخم المؤلفات العربية الأدبية

والتاريخية قام بنشرها الاوروبيون . ومثال ذلك ما تمّ تحقيقه ونشرة لكتابي الصفدي « الوافي بالوفيات » وابن حجر العسقلاني « الدرر الكامنة »[٨٠] . أما العرب المسلمون فقد توقفوا عن الكتابة بالاسلوب العربي القديم الذي كتب به المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى واستعاضوا عنه بالاسلوب العلمي الحديث الذي يستخدمه المستشرق الغربي[٨١] . وقد حاول كرد علي نفسه أن يكون قدوة في الكتابة بطريقة علمية في كتابة « الاسلام وحضارة العرب » وبالأخص في المجلد الثاني حيث يجوب آفاقاً شتى من التاريخ الاسلامي ، ومثل ذلك مؤلفه « خطط الشام » وتحقيقه لبعض النصوص التي يعود تاريخها إلى العصور الوسطى من كتاب « تاريخ حكماء الاسلام » للبيهقي (دمشق ١٩٤٦) وغيره .

وختاما نقول أن كثيراً من المستشرقين لم يحسنوا معاملة الاسلام والعرب ، ولكن حتى المتعصبين دينيا (مثل لامنس) أو العلماءالمضلّلين قد قدموا شيئاً يستحق الاهتمام ، وعلى كل حال فقد جرى تصحيح أو استبدال بعضه على أيدي المستشرقين الأكثر دقة وتأييداً من أمثال غوستاف لوبون . ان اهمية المستشرقين الغربيين تكمن فيما قدّموه ، مما ينبه العرب المسلمين الحاليين إلى انجازات اسلافهم . لقد قامت النهضة الأوروبية على إحياءالعلوم القديمة ، وهذا بدوره أدى إلى انبثاق أوروبا الحديثة . وإذا كان العرب المسلمون يأملون في الوصول إلى مكانة تماثل ما عليه الأوروبيون في العصر الحاضر فان عليهم أن يجربوا نهضة خاصة بهم مبنيةً على تقدير أسلافهم وفهمهم . أما ميل العرب المسلمين المعاصرين للاعجاب بحضارة الغرب ودراستها فيتصدى له كرد علي بتقديم البراهين على الانجازات العظيمة للمسلمين والعرب . وقد برزت هذه الانجازات بشكل واضح لأن علماء ممن أفرزتهم الحضارة الأوروبية قد قاموا بدراستها والثناء عليها .